

# البَابُ الأولُ

نظرة عامة الى موضوع الكتاب

---



# الباب الأول

## نظرة عامة إلى موضوع الكتاب

- ١ — علم الأخلاق : دراسة الخير الأقصى للإنسان - التفرقة بينه وبين العلم الالهي - دراسة الخير المطلق .
- ٢ — تميز الأخلاق تميزاً جزئياً عن علم السياسة .
- ٣ — علم الأخلاق وعلم النفس .
- ٤ — علم الأخلاق : دراسة الواجب أو السلوك القويم
- ٥ — علم الأخلاق وفقه القانون - نشأة الملكية الخلقية - الإرادة الحرة - نظرة مجملة لعلم الأخلاق .

من العسير أن يحدد موضوع الأخلاق تحديداً يرضيه الجميع ، لأن طبيعته وعلاقاته بغيره ، يختلف في فهمها العلماء في مختلف المدارس ، ولهذا يتصوره المثقفون بوجه عام تصوراً غير محدود . وقد خطر لي أن أؤثر البلبه في هذا الفصل التمهيدى بالتوسع تدريجياً في مختلف وجهات النظر التي اضطرت العقل البشرى إلى الأخذ بها في موضوعات البحث الخلقى وعلاقته بالمواد التي تتصل به كالإلهيات والسياسة وعلم النفس ، ثم أنتهى إلى رأى بصدد هذه الموضوعات ، ويان الأقسام الرئيسية للموضوع الذي أعتمد دراسته ، محاولاً في نفس الوقت أن أعالجها على حدة وأن تكون دراستي لها شاملة ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

## ١ - علم الأخلاق - دراسة القبر الأقصى للإنسان :

إن اشتقاق كلمة Ethics مضلل بعض التضليل ، لأن كلمة  $\eta\theta\iota\kappa\alpha$  <sup>(١)</sup> يقصد بها في الأصل ، ما يتصل بالخلق متميزاً عن الإدراك ، ولكن سمات الخلق التي نسميها فضائل وريثاً ، لا تكون إلا عنصراً واحداً في موضوع البحث الذي كتبه أرسطو ، وجعل ذلك اللفظ  $\eta\theta\iota\kappa\alpha$  دالاً عليه . ويرى أرسطو - وهو رأى الفلسفة اليونانية بوجه عام ، ونفس الرأى الذى شاع الأخذ به فيما بعد ، أن موضوع البحث الخلق الرئيسى ، هو كل ما تتضمنه فكرة ما هو خير أقصى ، أو مرغوب فيه عند الإنسان ، أى كل ما يقع عليه اختياره أو يلشده ويسعى إليه عن عقل ، لا كوسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، بل باعتباره غاية لذاته .

## التفرقة بينه وبين العلم الإلهي - دراسة القبر المطلق :

وقولنا المرغوب فيه « عند الإنسان » ، - في تعريفنا السالف - له خطره في التمييز بين موضوع علم الأخلاق والخير المطلق أو خير المجموع الذى يمكن اعتباره موضوعاً للعلم الإلهي بمعنى الواسع ، الذى لا يتضمن إلا افتراض خير أو غاية قصوى يعمل على تحقيقها كل سير العالم - كما هو معروف لنا بالتجربة - وهو كيفما كان مجرد وسيلة ، وليس من المحتوم ربط الشخصية بهذا الخير أو تلك الغاية . ومهما يكن من شيء فقد استنفد التوصل إلى التمييز بين علم الأخلاق والعلم الإلهي في تقديم التفكير الأخلاقي زمناً وجهداً ، إذ كان علم الأخلاق والعلم الإلهي في المذهب

(١) تنطق هذه الكلمة اليونانية (إيثيكا) وهى الأصل فى اشتقاق الكلمة الإنجليزية (Ethics)

، المترجمان ،

بمعنى « علم الأخلاق » .

الأفلاطوني - كما سنرى بعد - ممتزجين امتزاجاً كاملاً . ولا ينبغي كذلك أن يفهم التمييز بين الأخلاق والإلهيات على أنه تفرقة تامة بين موضوعيهما ، بل إننا نلاحظ على عكس ذلك ، أن كل مذهب فلسفي على وجه التقريب ، ينظر فيه إلى أنه للعالم خيراً أو غاية قصوى ، يدرك فيه خير الجنس البشري على أنه هو نفسه الخير العام (المطلق) أو متضمن فيه أو وثيق الاتصال به على أي حال .

## ٢ - تمييز المفهوم تمييزاً جزئياً عن علم السياسة :

بل إن التعريف الذي أسلفناه لم يفصل بعد بين علم الأخلاق وعلم السياسة فصلاً بيننا ، لأن السياسة تعني كذلك بخير الناس ورفاهيتهم باعتبارهم أعضاء في دولة ، والواقع أن لفظ Ethics يستخدم في بعض الأحيان - حتى عند المحدثين من الكتاب - في معنى فضفاض يتضمن على أقل تقدير جزءاً من علم السياسة ، كالنظر في غاية الدولة القصوى أو خيرها الأسمى ، والمستوى أو المقياس العام الذي يحدد خيرية النظم السياسية أو شريتها .

على أن من الشائع كذلك ، استخدام لفظ Ethics في معنى ضيق يعادل قولنا : علم الأخلاق الخاص ، الذي يفضل أحياناً للدلالة على دراسة خير الإنسان أو رفاهيته ، متى كان من الممكن أن يتحقق هذا الخير عن طريق النشاط العقلي عند الأفراد بما هم أفراد .

وهذا المعنى الأخير هو الذي قصرت عليه إجمالاً علم الأخلاق في العرض التاريخي التالي ، وفي نفس الوقت لم أحاول أن أفصل كل الفصل بين الموضوعين ، لأن العلاقة بينهما - على أقل تقدير في كثير من المذاهب التي

يتعين علينا أن نعالجها - تبدو وثيقة جداً ، وليس من العسير أن نتبين صعوبة الفصل بينهما ، سواء أدنونا من الحدود التي تفصل بينهما من ناحية الأخلاق أم من ناحية السياسة ، لآنا نلاحظ من ناحية أن الناس فرادى ، هم بوجه عام أعضاء في جماعة سياسية أو هيئة لها حكومة ، وما نسميه فضائل عندهم ، إنما تبين عنه بوجه خاص معاملاتهم لرفاقهم ، وأظهر لذاتهم وآلامهم قد صدر كله أو بعضه من علاقاتهم بغيرهم من الناس ، ولهذا فإن أكثر الذين يعتبرون الفضيلة أو اللذة المقوم الوحيد أو الرئيسى للخير الأسمى عند الإنسان ، مضطرون إلى التسليم بأن هذا الخير لا يلتبس في حياة عزلة تلسكية يهمل فيها خير الجماعة ورفاهيتها . إنهم مضطرون إلى التسليم بأن « لعلم الأخلاق الخاص ، جانباً سياسياً ، ومن المتفق عليه - من ناحية أخرى - أن أقصى مقصد رئيسى للرجل السياسى ، إنما هو العمل على ترقية الخير عند مواطنيه المعاصرين له ، وعند الأجيال المقبلة منهم باعتبارهم أفراداً . ولهذا وجب أن يكون البحث في خواص هذا الخير جزءاً متما لعلم السياسة . ومع هذا فإننا - إلى حد كبير - قد ندرس عناصر الخير وشروطه عند الناس فرادى ، طالما كان من الممكن أن يتحقق هذا الخير عن طريق النشاط العقلى الذى يقومون به أنفسهم أو يقوم به أفراد آخر يمثلون أشخاصاً بعينهم ، من غير اعتبار للطريقة التى يتعين بها شكل الحكومة ووظائفها بالنظر إلى نفس الغاية ، وعلى هذا فسينصب اهتمامنا فى الصفحات التالية على أول هذين الموضوعين (الأخلاق) يميز أعن الموضوع الآخر (السياسة).

### ٣ - علم المفهوم وعلم النفس :

ومهما يكن من شئ . فإننا حين نتصور الفرد منعزلاً على حدة ما أمكن

ذلك ، لكي نتأمل فيه من وجهة نظر أخلاقية ، تكشف أمامنا علاقة أخرى لعلم الأخلاق ، هي علاقته بعلم النفس الذي يعنى بدراسة الإنسان من الناحية النفسية أو العقلية . وسرعان ما يهديننا النظر العقلي إلى أن الخير الحقيقي للإنسان ، لا يمكن أن يتمثل في شيء خارجي أو مادي كالثروة مثلاً ، بل لا يقوم حتى في مجرد الصحة التي يتمتع بها الجسم ، تلك الصحة التي أظهرت التجربة إقترانها بالإفراط في الشر والتناهي في الشقاء . ويلوح لنا أننا نبني حكماً على الناس بأنهم أخيار أو أشرار - شجعان عدول أهل عفة ، أو على النقيض من ذلك ، على أساس ما نلاحظه في سلوكهم من آثار خارجية . ومع هذا فإن المفكرين متفقون بوجه عام على أن مثل هذه الأحكام سطحية وعرضية لأن تكون خاطئة ، وأن من الضروري أن تتوافر في صاحب الفعل ( الأخلاق ) حالة عقلية خاصة ، وأن يكون له مقصد معين ، وغرض يسعى إليه ، وباعث أو ميل يدفعه للعمل ، حتى يتيسر لنا أن نعتبر العمل خيراً من وجهة النظر الأخلاقية . ثم إننا حين نحلل الآثار الخارجية السالفة الذكر بدورها ، نجد أن ما اعتبرناه بحق خيراً أو شراً أقصى ، يكاد يكون في كل الحالات نتائج لوجدانات الناس وغيرهم من كائنات حساسة ، أو نتائج للخلق الإنساني والإرادة البشرية . ولهذا فإن جميع مدارس الأخلاق تكاد تكون على اتفاق في أن الغرض الرئيسي من البحث الخلق ، يجب أن يكون على اتصال بالجانب النفسي في حياة الإنسان سواء :

(١) أسلم أتباع هذه المدارس ، بأن غاية الإنسان القصوى ، تقوم في وجوده النفسي باعتباره لا يعدو أن يكون صاحب حس وعاطفة ، موحد بين هذا الوجود النفسي وبعض ضروب الوجدانات أو اللذات المرغوب

فيها أو بينه وبين نوع أو عدة أنواع من هذه الوجدانات .

(٢) أم رأوا بالآخرى أن خير العقل يجب أن يقوم فقط - أو بوجه خاص في نوع نشاطه - أى في كماله الأخلاقى .

وحين نحاول أن نصوغ كلاماً من وجهتى النظر في مذهب واضح كامل ، نجد أنا مسوقون حتماً إلى دراسات سيكولوجية أبعد مدى :

لما : (١) لكى نتخبر مختلف أنواع اللذة والألم ونعرف درجاتهما المتباينة .

(٢) أو لكى نحدد طبيعة الفضائل المختلفة أو صفات الخلق الخيرة وأضدادها ، ونعرف العلاقات المتبادلة بينها .

وقد عرضت للحديث عن خير الإنسان باعتباره موضوع اختيار أو مقصد مبعثه التفكير . وقد أردت بهذا أن أميز بينه وبين موضوع الدوافع التى لا تعدو أن تكون حسية ووجدانية ، وهى الدوافع التى تكفل الحىض على العمل المضاد للخير الحقيقى كما يدركه الإنسان . ولكن فكرة « الاختيار العقلى » أو « الحىض على العمل » تقوم على التروى الذى تكتفه مصاعب ، ويبدو للبعض أن الدافع الأقصى للعمل يصدر دائماً عن الشعور لا عن العقل ، ومن هنا كان التحليل السيكولوجى الدقيق ضرورياً للإبانة عن عمل العقل العادى فى الفعل الذى قسميه عقلياً ، وللكشف بوجه خاص عن علاقته بالرغبات أو مظاهر النفور التى تنشأ - فى بعض الحالات على الأقل - مستقلة عن العقل ، وتبدو فى حالة صراع معه . وإلى جانب هذا كان علماء الأخلاق - أثناء الجدل الذى ثار بينهم بصدد ماهو خير حقيقى أو مرغوب فيه - أى بصدد طبيعة الخير الأساسية التى أسلفنا توضيحها - كان هؤلاء العلماء يلجأون على الدوام إلى رغبات الإنسان الواقعية فى شرح

وجهاً نظرم على افتراض أن ما يشده الإنسان ويرغب فيه بحق ، يطابق ما يرغب فيه بطبيعته أو باستمرار أو بوجه عام . وهكذا نجد ألا مناص من أن تنتهى المسائل الخلقية بشئ الطرق إلى الأبحاث السيكولوجية . بل فى وسعنا أن نقول إن جميع الأفكار الأخلاقية الهامة ، هى حقائق سيكولوجية كذلك ، مع جواز استثناء التقابل الأساسى بين « الخير » و « الشر » والاستقامة والفساد ، بما لا يعنى علم النفس عن طريق مباشر ، لأنه يعالج البحث فيما هو كائن ، لا فيما ينبغى أن يكون<sup>(١)</sup> .

#### ٤ - علم النفس - دراسة الواجب أو السلوك القويم :

إن التقابل السالف الذكر - بين الخير والشر ، والاستقامة والفساد ، كثيراً ما يعتبر تعبيراً عن شئ واحد ، والواقع سيان أن نقول - فى الأغراض العادية - « سلوك قويم .. أو خير » ، و « بواعث فاسدة أو أو شريرة » ، وإذا أمعنا النظر فى هذا الموضوع ، وجدنا أن الفكرة الشائعة عما هو خير لكائن بشرى - حتى إذا قصرنا الحديث على ماهو « خير أقصى » ، أو « خير فى ذاته » ، لا على ما يكون مجرد وسيلة لتحقيق غاية أبعد منه - تتضمن معنى أوسع من الفكرة الشائعة عن الاستقامة بالنسبة للإنسان أو إدائه لواجبه ، بل تتضمن - فكرة الخير - أيضاً مصلحته أو سعادته . وما من شك فى شيوع الاعتقاد بأن أفضل ما يستطيع الإنسان عمله وأقصاه

---

(١) علم الأخلاق أضيق مجالاً من علم النفس من حيث إنه ينصب على دراسة السلوك الانساني الذى يصدر عن عقل دواك وإرادة حرة ، ويستبعد من مجاله كل سلوك لا يدخل فى هذا المجال ، أما علم النفس فإنه يدرس السلوك فى كل صوره - سلوك الحيوان والطفل والمجنون والشاذ ... . بالإضافة إلى أن علم الأخلاق علم معيارى normative - بالمعنى الذى أسلفناه فى المقدمة . وأما علم النفس فهو علم وضعى positive لأنه يدرس الظواهر الوجدانية كما هى لا كما ينبغى أن تكون « المترجمان » .

هو أن يؤدي واجبه ، وأن قيامه بالواجب كفيل بأن يحقق مصلحته الحقيقية أو ينيله سعادته . ولكن هذا لا يلزم عنه أن تكون فكرة الواجب وفكرة المصلحة شيئاً واحداً ، بل لا يلشأ عنه إمكان معرفة الصلة الدائمة بينهما معرفة علمية ، والتدليل عليها بالبرهان ، فإن هذه العلاقة كثيراً ما ينظر إليها المحدثون من العلماء كمسألة عقيدة - كشيء تركته العناية الإلهية مشوباً بالغموض ، حتى يؤدي الواجب باعتباره واجباً ولا يكون مرد أدائه إلى مجرد تقدير لمحبة الذات .

ومن هنا نصل إلى تصور آخر لعلم الأخلاق ، يبدو فيه معنياً بوجه خاص بالقواعد العامة التي يقوم عليها الواجب أو العمل القويم - وهي التي تسمى أحياناً بمجموعة القوانين أو الشرائع الخلقية - على اعتبار أنها مفروضة على كل إنسان ، بحيث يطيعها بغض النظر عن مصلحته الشخصية ، فإن صلة الواجب بسعادة الإنسان الخاصة ، تعتبر شيئاً ثانوياً في نظر الأخلاق . ومن هذه الوجهة تتصل دراسات الأخلاق عن طريق جديد بالإلهيات ، إلى الحد الذي تعتبر فيه قواعد الواجب مجموعة قوانين وضعت عن التشريع الإلهي . بل إنها تتصل إلى جانب هذا - كما سنرى - بفقه القانون المجرد اتصالاً وثيقاً من حيث إن هذا العلم معنى بدراسة قواعد القانون التي يدركها العقل على أنها صادقة صدقاً طبيعياً ومطلقاً ، ومن ثم فإن طاعتها مفروضة على الناس من غير تشريع إنساني يفرض عقاباً قانونياً على من يعصيها ، لأن مثل هذه القواعد القانونية يجب أن تكون في كل الحالات جزءاً كبيراً من مجموعة القوانين الخلقية - وإن كانت لا تكون كل هذه المجموعة . وفي وسعنا أن نقابل بين هذا الرأي في تصور الأخلاق باعتباره اتجاهاً حديثاً وبين الرأي الذي أسلفناه من قبل ، وهو الذي شاع

عند فلاسفة اليونان بوجه عام<sup>(١)</sup> . والانتقال من الرأى القديم إلى الرأى الحديث يعزى إلى تأثير المسيحية بوجه خاص ، وإلى تأثير فقه القانون الرومانى بوجه عام . ومن المحقق أن فكرة قانون الآلهة الثابت غير المكتوب لم يخل منها قط النظر الأخلاقى عند الأغريق ، ومع ذلك فإن فكرة القانون لم تعالج باعتبارها آخر تصور أساسى انتهت إليه المذاهب الأخلاقية القديمة ؛ ومرجع هذا إلى أنها تفترض أن الإنسان ككائن عاقل من واجبه أن يثبته خيره الأسمى فى حياته الدنيا ، ولذلك فإن القوانين التى يلزم بطاعتها يجب أن تبدو وسائل مؤدية لتحقيق هذا الخير ، أو خصائص فيها يتحقق هذا الخير . والتغير الذى أحدثته المسيحية فى هذا الصدد يبدو عند النظر إلى آثاره فى الجنس البشرى بوجه عام أجلاً شأننا منه إذا قصرنا النظر على تأثيره فى العقول التى تغلغلت فيها الروح الدينية تغلغلاً كاملاً . ذلك لأن القديس المسيحى الصادق قد عاش حتى على هذه الأرض حياة لا تقل عن حياة الفيلسوف الوثنى ، من حيث إن ذلك القديس قد آثرها على سائر أساليب الحياة الدنيا ، وكما عاش الفيلسوف الأفلاطونى حياة لم يكن جوهرها الفضيلة العملية بقدر ما كان جوهرها قائماً فى مظهرها الخارجى . ومع هذا فإن هذه الحياة الدنيوية لم توفر للقديس غير جزء ضئيل من التمتع سلفاً بالنعيم المقيم الذى أمل فيه . وفى رأى الكثيرين من عامة المسيحيين يتلاشى الخير الأقصى للإنسان بالإيمان فى مجرد التأمل الأخلاقى فى الإشراق اللانهائى ( المطلق ) لحياة سعيدة مقبلة ، يمنحها الله بطريقة خارقة للعادة جزاء وفاقاً على طاعة

(١) هذه العبارة ينقصها بعض التحديد ، كما تطبق على المذهب الرواقى ، الذى نتم على يد

أصحابه - كما سيظهر عاجلاً - الانتقال من طريقة التفكير القديمة إلى طريقة التفكير الحديثة .

انظر الفقرة الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من الباب الثانى والفقرة الأولى من الباب الرابع .

قوانينه ، بل لعل الأخرى أن نقول إن جمهور المسيحيين يرى أن مجموعة القوانين الأخلاقية أقرب ما تكون شياً بالشرائع الإنسانية من حيث إنها مؤيدة بالقصاص<sup>(١)</sup> ، وربما كان الخوف من عذاب الجحيم - في كل عصور المسيحية - باعثاً أقوى في حمل الناس على تجنب الرذيلة ، من الأمل في نعيم الجنة . وعلى أي الحالين ، قد أصبح أقصى خير أو شر للإنسان شيئاً يمكن تخيله ووصفه وصفاً بليغاً ، ولكنه لا يعرف على وجه الدقة ولا يخضع للبحث العلمي ، وبهذا حدد موضوع علم الأخلاق نفسه من جديد ، كقانون خلقي ، وهو مجموعة قواعد مفروضة على الناس إطلاقاً ، وقد وضعت لهداية السلوك الإنساني وإرشاده وإن لم يدع أصحابها انطوائها على رأى دقيق في الخير الإنساني .

#### ٥ - علم الأخلاق وفقه القانون :

كان الاعتقاد الشائع عند رجال الكنيسة المسيحية في أولى مراحل تاريخها ، أن قواعد الأخلاق - في مجملها إن لم تكن بحذافيرها - قد تكشف

---

(١) كان المتأخرون من مفكرى اللاهوت في العصر الوسيط - من أمثال دانت سكات ووليام أوكام - يردون الالتزام في القوانين الأخلاقية إلى سلطة خارج الذات هي إرادة الله وأحكامه المطلقة أو هي الوعد والوعيد ، الجنة والنار في الكتب المقدسة ، فالخير يكون خيراً لأن الله أراد ذلك ، ولو أراد الله أن يكون عكس ذلك لكان ما أراد . . ومن الأخلاقيين ( أمثال توماس هوبز ) من رد القوانين الأخلاقية إلى سلطة الحاكم السياسي المطلق أو الدولة التي تقرر خيرية الأفعال أو شريرتها . وقد كانت الرواقية يرون أن الأفعال هريئة عن الخير والشر - على الحياد - ولكنها تكتسب صفة الخير والشر وفقاً للنهاية التي تهدف إليها ، ولكن كدويرث - من أفلاطونيين كبرج - كان يرى وجود فروق جوهرية أبدية بين الخير والشر مستقلة عن تحكم الإرادة الإلهية والإنسانية على السواء ، ومثل هذا نراه عند المعتزلة في الإسلام لأنهم رأوا أن في طبيعة الفعل ما يجعله حسناً أو قبيحاً ومن هنا جاءت سلطة العقل وقدرته على معرفة الخير والشر ولو لم يرد بهما شرع .

عنها الوحي ، ولم تعرف عن طريق العقل المحض ، ولهذا من كان الطبيعي أن يقع على عاتق رجال اللاهوت تأويل هذه القواعد التي وضعت عن الشريعة الإلهية ، وكان على القساوسة أن يعملوا على تطبيقها ، ولكن عند ما شرع المدرسون في دراسة علم الأخلاق دراسة فلسفية ، بدأ يتضح في جلاء اتصال عنصرين في هذه القوانين : عنصر يتميز بالطابع المسيحي ، وعنصر يمكن إدراكه عن طريق العقل الطبيعي ، قد فرض على كل إنسان مستقلاً عن الوحي . ويبدو لنا أن تطور فقه القانون النظري الذي أعقب إحياء دراسة القانون الروماني إبان القرن الثاني عشر ، قد أدى إلى قيام نظرية دقيقة في العنصر الثاني . ثم تجلت فكرة قانون الطبيعة في الدراسات المتأخرة التي تناولت مبادئ القانون في روما ، وعدلت هذه الفكرة في سهولة وبغير تكلف لكي تمثل العنصر الذي بدا في الأخلاق مستقلاً عن الوحي . ومن الحق أن يقال إن القانون الطبيعي الذي غنى به فلاسفة القانون لم يكن معنياً بالسلوك القويم بوجه عام ، بل اقتصر على معالجة مثل هذه الأعمال الصالحة ( أو التعفف عن الخطأ ) كما يستلزمها إشباع مطالب الآخرين المشروعة ، ومن ثم لم يكن من الصواب توحيد هذا القانون الطبيعي مع أكثر من جزء في مجموعة القوانين الخلقية . ومهما يكن من شيء فإن هذا الجزء كان من الأهمية البالغة بحيث إن التمييز الذي لاحظناه الآن كان يهمله مفكرو العصر الوسيط وبدء العصر الحديث في كثير من الأحيان ، أو يعرضون له باعتباره شيئاً ثانوياً ، واعتبرت فكرة القانون الطبيعي متفقة مع الأخلاق بوجه عام ، من حيث إنها تدرك عن طريق العقل وتتمشى مع السلوك الخارجي .

## نشأة الملكة الخلقية :

ويتصل بهذه النظرة القانونية للأخلاق بوجه خاص ، القول بأن البحث في نشأة الملكة الخلقية قد شغل مكاناً بارزاً في الدراسات الحديثة التي تناولت علم الأخلاق . ولما كان الذي يهيمن على الإنسان ، أو ينبغي أن يهيمن على تصرفاته ، ينظر إليه على أنه ليس إلا الملكة التي تمكنا من إدراك خيرنا الحقيقي وأسبابه وشروطه الرئيسية ، كان من العسير أن نرى أهمية للبحث في كيف نشأت هذه الملكة ، أكثر مما يرى المشتغل بالهندسة أهمية للبحث الذي يستقصى نشأة الملكة التي تدرك المكان . ولكن حينما بدأت الملكة الخلقية تدرك على أنها الضمير - ونعني به ملكة تدرك القواعد التي تفرض على الناس إطلاقاً ، بحيث ينصاع لها الإنسان دون نظر إلى مصلحة ظاهرة تعنيه . وهذا الضمير مشرع في باطن الإنسان ، يطالب بالسيطرة المطلقة التي لا يحدها قيد ولا شرط ، على كافة منابع التي تصدر عنها أعمال الإنسان . حينما بدأت تلك الملكة الخلقية تدرك على هذا النحو كان من المنتظر أن تكون شرعية هذا الادعاء موضع اعتراض وبحث دقيق ، وليس من العسير أن نفهم كيف أن هذه المشروعية قد ظن أنها تعتمد على أصالة الملكة ، أي على كونها جزءاً من النموذج أو الصورة التي نشأت في الأصل على أساسه طبيعة الإنسان . وعلى هذا كان من المألوف اعتبار البحث في الحياة الخلقية عند الأطفال والهمج ، بل حتى عند الحيوانات ، كما اعتبرت بعض النظريات الافتراضية في نمو النفس وتطورها ، ملحقاً أو مقدمة ضرورية للبحث الخلقى الحديث .

## الإرادة الحرة :

وهكذا أصبح للبحث في الإرادة الحرة خطره، عن طريق التصور القانوني لعلم الأخلاق، فالرجل العادي لا يبحث بطبيعة الحال فيما إذا كان حراً أو غير حر حين يثبّد خيره الخاص، متى عرف ما هو هذا الخير وأدرك أن تحقيقه ممكن عن طريق العمل الاختياري، ولكن عندما يقارن سلوكه بمجموعة شرائع وضعت عقوبات توقع على من يعصون أوامرهما، يصبح النظر في إمكان إطاعته للقانون الذي يحاكم بمقتضاه أمراً بيناً لامناص منه، إذ أن توقيع العقاب عليه في حالة عجزه عن طاعة القانون يبدو منافياً لفكرتنا عن العدالة<sup>(١)</sup>

## نظرة مجملة لعلم المصير :

وصفوة القول إن موضوع الأخلاق إذا نظرنا إليه نظرة شاملة، بدا متضمناً لما يلي :

(١) البحث في مقومات الخير وشروطه عند الناس باعتبارهم أفراداً، ويتخذ هذا البحث بوجه خاص صورة اختبار للطبيعة العامة والأنواع الخاصة لما يلي : (أ) الفضيلة (ب) واللذة والوسائل المؤدية إلى تحقيق هاتين الغايتين .

(١) كانت الإرادة الحرة - أو موضوع الجبر والاختيار - مثاراً لجدل عنيف بين علماء الأخلاق ورجال القانون على السواء، ولكن القوانين الوضعية - ومنها المصيرية - تنمى مع المذهب النفليدي في المسؤولية وهو الذي يقوم على اعتبار الإنسان حر الاختيار. وأما الأخلاق فقد وضعت فيها مذاهب كثيرة متضاربة لعل أفواها اليوم مذهب الجبر الذاتي Self-determinism - وهو الذي يفرص قيام الحرية مقيدة بطبيعة صاحبها وشخصيته وسن فصل الحديث عن هذا المذهب وغيره في كتاب لنا نضمه الآن عن : المسؤولية، دراسة مقارنة في مذاهب الأخلاق وتشرع الإسلام والقانون الجنائي، المترجمان،

(٢) البحث في مبادئ الواجب أو القانون الخلقى وأهم تفاصيله - من حيث إنه متميز من الفضيلة .

(٣) البحث في طبيعة ونشأة الملكية التى يدرك بها الواجب ، بل البحث فى نصيب العقل فى عمل الإنسان بوجه عام ، وصلته بمختلف أنواع الرغبة والكراهية .

(٤) اختبار مسألة الإرادة الحرة عند الإنسان .

ويتصل علم الأخلاق بالعلم الإلهى من حيث إن الخير العام المطلق يشمل الخير الإنسانى أو يضارعه ، ومن حيث إن الأخلاق بمجموعة قوانين شرعها للناس إله .

ويتصل علم الأخلاق بعلم السياسة من حيث إن الخير عند الفرد مرتبط بخير مجتمعه .

ويتصل كذلك بفقه القانون - إن كان هذا منفصلا عن السياسة - من حيث إن الأخلاق تطابق القانون الطبيعى .

وأخيراً نلاحظ أن كل فرع من فروع البحث الخلقى يكاد يتصل - فى بعض نواحيه على أقل تقدير - بعلم النفس ، والأبحاث التى تتناول نشأة الملكية الخلقية وحرية الإرادة أبحاث سيكولوجية محضة ، إلا إذا اعتبرنا علم النفس متميزاً عن علم ما بعد الطبيعة ( المتافيزيقا ) ونظرنا إليه على أنه علم تجريبي بحث ، فإن مباحث الإرادة الحرة قد تستبعد من نطاق علم النفس وتدخل فى مجال ما بعد الطبيعة .

وسلبدأ الآن بتتبع تطور التفكير الخلقى بإيجاز منذ نشأته فى أوربا إلى عصرنا الحاضر ، وسنقصر اهتمامنا إبان المرحلة الأخيرة من هذا العصر على أساليب التفكير التى بدت فى إنجلترا أو كان لها أثر ملحوظ هناك .

وجدير بنا أن نلاحظ أن لفظ أخلاقى ( Moral ) يستخدم فى العادة مرادفا للفظ ( Ethical ) لأن اللفظ اللاتينى Moralis هو ترجمة للفظ اليونانى ἠθικός وسأستعملها فى هذا المعنى فى الفصول التالية<sup>(١)</sup>.



(١) هذا رأى له ما يبرره ، ولكن بعض الكتاب يعتبرون اللفظ الأول Moral أهم من الثانى ، لأنه نسبة إلى Morals أى الاخلاق والآداب بوجه عام . أما لفظ Ethical فنسبة إلى Ethics أى علم الاخلاق بمعنى البحث العلمى فى الاخلاق بوجه عام ، وبهذا يمكن التفرقة بين اللفظين المشار إليهما فى صلب الكلام بأن نقول إن Moral يراد بها ما يتفق مع الاخلاق والآداب كما تمارف عليها الناس ، أما Ethical فسيراد بها ما يتفق مع مبادئ علم الاخلاق وواضح أن المعنى الثانى أخص من الاول وأما بهذا تتلافى ترجمة اللفظين بكلمة واحدة ، إلا إذا فرقنا اصطلاحا بين كلمة خلقى وأخلاقى .